حقيقة النهضة الفنية المصرية

فى النحت والتصوير

بقلم الرسام المصرى الشهير الاستاذ شعبان زكى

منذ ربع قرن بدأ المصريون لأول مرة يتلقون دروس الفن الجميل على اساتذة غربيين (فى مدرسة الفنون الجميلة القديمة) التى انشأها صاحب السمو الامير يوسف كمال .

وبعد بضع سنوات من إنشاء هذه المدرسة ذاتها بدأ تخريج الرسامين والمثالين والمعماريين ورجال الفن الزخرفى منها عاما بعد عام حتى إذا أوفت على عشر سنين ودن قد عاد إلى الغرب من أساتذتها من عاد وقضى منهم من قضى نحبه واستبدل السابقون الكرماء بلا حقين غير كرماء . . . . بدأ الانحلال يسرى فى هيكل الفكرة النبيلة من انشاء معهد مصرى للفن الجميل .

كان الرجل من هؤلاء الاساتذة الكرماء قطعة فنية بما ينطوى عليه من ذوق وخلق وحب وانعطاف للجمال ، وكان يحب مصر حتى من قبل أن يفد اليها ، وكان يكرم أبناءها لانهم ابناء أمة أنجبت فراعنة ذوى حضارة وصولة وعلم وفن جميل ويعطف عليهم عطف المعلم المختار لتعليم أشبال الملوك — يلقنهم الدروس وهو يتأمل مواقع الكلام فى نفوسهم ليعرف ماهية النفس الانسانية ونفسه فى السياق ، وليستمد من جو يحيط به مايكمل هذه النفس الناشئة ونفسه فى السياق أيضاً .

كذلك كان الاساتذة الأولون بالمدرسة القديمة وبفضلهم أنجبت مصر الحديثة اخصب المواهب الفنية التى تتجلى الآن ويشهد لها أهل الغرب انفسهم ممثلة فى محمد حسن وعثمان دسوقى ومختار وعلى حسن واحمد صبرى ومحمد حمدى ويوسف كامل وراغب عياد وابراهيم فوزى وأحمد لطفى وعلى الاهوانى ومن اليهم . . . . فلما انقطعت

أسبابهم ولم يحل محلهم ذوى فضل كفضلهم أخذ الضعف يدب فى المدرسة حتى تلاشت فى العام الماضى دون ماغرابة أو تأسف .

على هؤلاء الخريجين الذين ذكرناهم — والى جانبهم مصريون آخرون — سيأتى ذكرهم بعد — كانوا قد كونوا انفسهم بانفسهم ، قام أول معرض مصرى للفنون الجميلة فى بدء الثورة الاستقلاليه فكان قيامه عام سنة ١٩١٩ مظهراً شاهداً على جدارة مصر بالنهوض . وكذلك الفن الجميل هو دائماً عنوان النهوض والتحضر .

لم يكن ثمة شىء يعوق استمرار هذه الحركة الفنية لولا أن عيباً قد بدأ فى الرسامين المصريين وهو عيب ملازم لرجال الفن جميعاً ذلك انهم روحيون لا ماديون . فليس من بد عندهم ان يسلموا مقاليد المعرض التالى لكل المعارض التالية جميعها لرجل مادى عادى يشغل أوقاته فى الحساب ليشغلوها هم فى التفنن .

وشاء الحظ العاثر ان يتطوع لخدمتهم رجل لو عرفت يومئذ اخلاقه ومعارفه ونواياه لتولوا بانفسهم الامر كله .

تولى إذن هذا الرجل مقاليد المعارض وكانت له بضاعة خاصة وجد الظرف مهيئاً لعرضها ضمناً فكانت فى الظاهر ضمنية وهى فى الواقع كل شىء عنده — وافلح الخبيث اذ عرف اناساً وعرفه ناس وسعى ليستمر الحال هكذا فقصد ذوى جاه وآخرين ذوى سلطان واستدرج هؤلاء بواسطة أولئك من طريق الحث على تشجيع الفنون وأخيراً تكونت (جمعية محبى الفنون الجميلة المصرية) بصفة جدية وشبه رسمية وعين هو فيها سكرتيراً دائماً حيث كان صاحب الفكرة التى ظاهرها حلو وباطنها مر وساعده على هذا التوفيق ان الذين اقروه من ذوى الجاه لهم شبيهة نواياه وان الذين آمنوا عليهم من ذوى السلطان كانوا ككل ذوى سلطان موضع تشريف لا موضع اشراف .

الا ان فيها وزراء ووجهاء وسيدات أصحاب فضل وعرفان لو ان الامر كان موكلا بهم وحدهم لبلغنا فى الفن بنبلهم اعلى مكان ولا تيح لجيلنا ان يبعث بنا لاجيال الاجداد فاصحاب السمو الامراء يوسف كمال ومحمد على وعباس حليم وسميحة حسين ومعالى الوزراء الذين تقلدوا الحكم وكل ذى اثر بعدهم فى نصرة الفنون من بينهم الاساتذة هيكل والعقاد والمازنى وعزمى وسالم وخيرى سعيد ومن بينهم كذلك السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى ولها منا الرسامين كل عطف واجلال .

كل هؤلاء وغيرهم قد شاركوا رجال الفن انفسهم فى نشر روح الفن — تلك المشاركة المتبادلة او هذا التجاوب النبيل — هو الذى يخيل للبعض ان فى مصر نهضة فنية يجرى فيها كل شىء بميزان

على ان الواقع الذى يعلمه اصحاب الفضل هؤلاء ويعلمونه وحدهم تقريبا هو من الخطورة بحيث لا يجب تركه مختفيا هذا الخفاء بل ان كشفه واجب على رجال الفنون بعد اذ اغفلته (جمعية محبى الفنون الجميلة المصرية) .

ليس غريبا ان نتساءل ونحن نبحث فى حقيقة النهضة الفنية — ماذا جنت مصر من (جمعية محبى الفنون الجميلة) مثلا مدى سنوات سبع ومن الادارة الفنية مدى اعوام ثلاثة ؟ فان الذى جناه رجال الفن طول هذا المدى شىء واحد بدا هو الآخر يظهر للعيان ، ذلك هو انسحابهم (الرسامين) من وادى هؤلاء النفعيين واستقلالهم بمعرض — هو انهم قد جد عزمهم وتم تآزرهم على ان يضربوا مثلا عملية صالحة للذين هم مطالبون بهذه الاعمال بما وسعت سلطتهم والاعتمادات السخية التى تنهار عليهم كل عام

***

كنا مدة انضوائنا تحت لوائهم نعمل طوال العام وكل عام ثم تقام المعارض فى مواسمها و بمحصولنا تقام وتحيا فاذا الغرم علينا كل مرة برغم تطوعهم حماة لفننا وأحباء وحراساً .

وعرفناهم جيداً فعرفنا فيهم اناسا كل غايتهم مظهر لا جوهر ، واثرة لا ايثار ، وكل حقيقتهم طلاء وادعاء لا خبرة او بلاء . وكان طبيعيا — وهم بهذا الوضع — ان يتطوروا وان يضلوا فينبذهم رجال الفن جميعاً . وكان معرض (جماعة الخيال) اول مظهر لهذا النبذ وكان معرض (الرابطة المصرية للفنانين) هو المظهر الجدى الخطير .

أويد رى القارىء ماذا كان موقفهم حين نبذهم رجال الفن ؟ اخذوا يقولون عنهم انهم مبتدئون وانهم غير فنيين ولم يعملوا حسابا للحرج الذى يصيبهم عندما يسألون كيف كانت حمايتهم اذن للفن ورجاله ، وما حكمة بقاء جمعيتهم بعد ان تخلى عنها الذين من اجلهم تكونت ؟! ابقى لحماية المعارض الاجنبية واقامة الاسواق

التجاريه للمكتب وما شابهها وهل يظل اسمها (جمعية محبي الفنون الجميلة المصرية) وهي الى الآن لم تفكر فى انشاء متحف قومى دائم ولا مكتبه فنية جامعة ولا محاضرات ولا نقد منتظم ولا جوائز ولا اى شيء من هذه الاشياء التى تساعد على نشر روح الفن فى البلاد ؟ !

لايجب أن تكلم كثيراً فى جمعية أعضاؤها العاملون فضوليون . لا ولا نريد ان نسدى اليها نصحاً ، فقد أصبحت فى نظرنا بحيث لاتستحق النصح أو الارشاد ... على أننا قد نكون قساة عليها فى رأى البعض ولهذا نود ان نقدم شاهداً يسيراً يؤيد رأينا ويوافق آراء سبق ان وجهت لجمعية محبي الفنون الجميلة تارة وللادارة الفنية أخرى فى مناسبات شتى فكانت كصيحات فى واد ليس فيه موضع لرجاء .

ذلك الشاهد الذى نقدم للقراء هو خلاصة حديث للاستاذ عزيز طلحة مع الاستاذ الكبير جارتسيا الرسام الايطالى الأشهر وقد نشر الحديث مفصلا (بالسياسة) اليومية حديثاً . واليك خلاصة الحديث : بين ضيوف مصر المصور الايطالى الطائر الصيت ج . جارتسيا احد اعلام الفن الجميل لافن إيطاليا وحدها بل فى العالم جميعاً من يفاخر به مواطنوه فى معرض الموازنة بين فنانى إيطاليا وسواها من الدول الحية ، أتيح لى أن اجتمع به بفندق شبرد حيث ينزل . وهو الذى رسم الستور موسوليني يوم زحف بجيش الاقمصة السوداء على رومة فقدست إيطاليا تلك الصورة وأودعتها متحف روما تخليداً للذكرى التى اليها تشير . . . . قال جارتسيا فى معرض الحديث : ان العالم الآن يعنى كثيراً بالفن والفنانين إذ أن الفنون الجميلة هى فى الحق نواة الرقى والتكوين وواسطة التدريج فى مراقى السمو والعظمة وهي الأداة التى تخلق فينا الذوق العلمى وتنبت فى أنفسنا الميل إلى التنظيم والتنسيق كما تدنينا من حل لغز الحياة .

« وللفنون الجميلة منابت للخصب مستحدثة تلك هى المتاحف القومية وأخرى طبيعية تلك هى الطبيعة وانه ليخيل إلى أن مصر مهدها و وطنها الصميم وكم كان اسفى شديداً حين كنت أرى المصريين منصرفين فى الايام الخالية عن الفنون الجميلة وكم كان اغتباطى شديداً حين حضرت إلى مصر لثانى مرة فى حياتى فالفيتها وثابة فى هذا الميدان تريد الوقوف منه فى المكان اللائق بها . فمصر حقاً بلاد الفنون الجميلة ومرتعها الطبيعى الخصب »

«لكن هناك أمراً يجب التوفر على تحقيقه قبل فوات الفرصة ذلك أنه من الواجب أن تعنى وزارة المعارف بتنظيم الفنون الجميلة فى مصر لا بمعونة رجال العلم فحسب بل بمساعدة الفنانين أيضاً . فقد رأيت لبعض المصريين هنا لوحات أعجبت بها حقاً .

«يجب أن تكون فى الوزارة وحدة قائمة بذاتها يديرها رجل مثقف ويشرف على اقسامها المختلفة رجال الفن الذين يعول على خدمتهم. من هذه الاقسام المختلفة تنظيم المعارض الفنية والرحلات والتمثيل وما إلى ذلك . أما إذا ظلت الحال سائرة على حالها اليوم فان النتيجة تكون غير متكافئة مع المجهودات الموزعة التى نبذلها مصر الآن الخ . . . الخ . . . »

ذكرنا من الخريجين الفنيين بعض الأسماء ولم نذكر أسماء إخوانهم فى الجهاد. وهم من كونوا انفسهم بانفسهم أمثال هدايت وامين العمرى بك ومحمود سعيد وناجى وشفيق شاروبيم وأحمد يوسف وليب تادرس وسليمان وبولس . الا ولم نذكر بعض من تخرجوا من مدارس فنية غير الفنون الجميلة الملغاة امثال الاساتذة احمد احمد يوسف وصالح الشيتى ورجب عزت . فلهؤلاء جميعاً إلى جانب الأولين فضل الحركة والحياة وعلى أكتافهم سويا قامت النهضة الفنية الحديثة فى مصر وما تزال تقوم .

والذى نرجوه لهذه النهضة التى هى نبراس لغيرها فى الشرق العربى أن تتم لها أسباب الاستقرار وليست تتم هذه الأسباب إلا بالاستعانة الجدية بالفنانين .

وبعد إثبات ماتقدم قرأنا فى الصحف انه قد جرى تعديل فى الأدارة الفنية وان الشؤون التى تمس الفنون أصبحت جميعها موكلة بادارة استاذ جليل هو الهلالى بك الوكيل المساعد الجديد لوزارة المعارف العمومية . . . فهدأ البال واطمأن القلب وناجانا صوت من الضمير ان تترقب منذ اليوم عاقبة للصبر وثمرة للجهاد . وأحسنا كأن فى الجو تجاوباً يلهج برجاء . لعل هذا الخبر الجديد فاتحة كل خير جديد . »؟

سعيد زكى